

التحويل بالاستبدال في النحو العربي

دراسة نظرية تحليلية

د. ابتهاج محمد علي البار

الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الملك عبدالعزيز - جدة

ealbar10@gmail.com

مستخلص البحث:

تهدف هذه الورقة إلى تسليط الضوء على ظاهرة التحويل بالاستبدال في الدراسات النحوية القديمة، وذلك باتباع المنهج الوصفي التحليلي الذي تم من خلاله الوقوف على بعض مظاهر التحويل بالاستبدال، يجيب البحث عن سؤال رئيس، هو: ما مظاهر التحويل بالاستبدال وما ضوابطه عند النحاة القدماء؟ فالبحث يفترض أن النحاة استخدموا مبدأ التحويل بالاستبدال في معالجتهم بعض التراكيب اللغوية، وقد تم عرض هذه المعالجة التحويلية عند القدماء بطريقة اللسانيين المعاصرين. وخلص البحث إلى نتائج، من أبرزها: وجود ضوابط -قررها النحاة- ترتبط بالتحويل بالاستبدال، مثل: اتفاق المُستبدل والمُستبدل منه في الوظيفة النحوية، موافقة المُستبدل به القواعد النحوية المُطرّدة، أُستخدم التحويل بالاستبدال بغرض توضيح المعنى في بعض التراكيب، قد يكون الأصل (المستبدل) الذي يفترضه النحاة غير مُستعمل.

الكلمات المفتاحية: التحويل- الاستبدال- النحو العربي- Replacement- grammatical studies -

Arabic Grammar

Replacement in Arabic Grammar

Abstract:

The purpose of this paper is to shed light on the phenomenon of Replacement in the old grammatical studies by following the analytical descriptive approach through which to identify some aspects of switching by shifting. The research answers a main question which is: what are the forms of Replacement and what are the standards of this switching according to the ancient grammarians? The research hypothesize that the grammarians used the principle of Replacement in order to deal with some linguistic structures, and this switching process has been demonstrated in the past by contemporary linguistics. The study concluded with results, the most important of which are: there are some controls - decided by the grammarians - related to Replacement, such as: the compatibility of the shifted and the shifted from in the grammatical function, the compatibility of the shifted by with the grammatical rules, the use of Replacement to clarify the meaning in some compositions, and in some cases the proposed term (to be shifted) by the grammarians is not used

مقدمة:

يعد مصطلح التحويل من المفاهيم الأساسية في اللسانيات الحديثة وهو مصطلح لغوي عُرف في اللسانيات التوزيعية مع زليغ هاريس ZelligSabbatei Harris واشتهر في نظرية النحو التوليدي التحويلي للعالم الأمريكي تشومسكينذ ظهور كتابه "الأبنية التركيبية" (Syntactic structures) الصادر سنة ١٩٥٧ .

و يستهدف هذا البحث دراسة التحويل بالاستبدال في النحو العربي ، وذلك بتوظيف المنهج الوصفي التحليلي، وتأتي أهمية البحث في كونه يتناول نظرية لسانية حديثة لها قيمتها العلمية في الدرس اللساني الحديث ويُوظفها في مجال تحليل التراكيب النحوية العربية ، وقد سعى البحث إلى الإجابة عن أسئلة أساسية ، هي : ما مظاهر التحويل بالاستبدال في النحو العربي؟ وما ضوابط التحويل بالاستبدال عند النحاة القدامى؟

وثمة دراسات عدّة تناولت مفهوم التحويل بوصفه إحدى طرق التحليل اللغوي. وقد تتبعت الباحثة ما توافر لديها من مراجع حديثة تناولت الموضوع، وأبرز ما وقفت عليه هو الآتي:

تحدّث عبده الراجحي عن الجوانب التحويلية في النحو العربي، ووقف على العناصر المشتركة بين النحو العربي والمنهج التحويلي، وخلص إلى أن الأصل العقلي فيهما واحد، فالمنهج التحويلي يرفض الاقتصار على دراسة البنية السطحية، ويعدّ ذلك وصفا محضا للغة لا يفيد كثيرا في فهمها، كما أن النحو العربي لم يقف عند الوصف المحض بل تعدّاه إلى تفسير بعض الظواهر اللغوية تفسيراً عقلياً عن طريق الافتراضات والتقديرات والتأويلات النحوية. (الراجحي: ١٩٨٨)

وناقش نهاد الموسى جوانب من نظرية النحو العربي في ضوء منهج النحو التوليدي التحويلي، محاولاً الكشف عن وجوه الاتفاق والافتراق بين النحاة القدامى ونظرية تشومسكي في المنهج والتفكير والتطبيق؛ سعياً وراء تأصيل التراث، مثل: قضية الأصل والفرع، والبنية السطحية والبنية العميقة، لكن الكتاب لم يستكمل جميع جوانب نظرية النحو التحويلي؛ نظراً لطبيعة البحث الذي تناول عدداً من المناهج اللسانية الحديثة، وليس نظرية تشومسكي فحسب. (الموسى: ١٩٨٧م)

وكتب خليل عميرة في العامل النحوي، ودوره في التحليل اللغوي؛ وقدم تصوراً واضحاً للعامل النحوي وفق منهج وصفي تحليلي، إذ يرى أن الجمل في اللغة العربية تنقسم إلى قسمين: جمل توليدية، وجمل مُحولة ، والأولى قد تكون اسمية أو فعلية، وإن جرى عليها تغيير بدخول أحد عناصر التحويل أصبحت جملة مُحولة، والتوليدية تضمّ المعنى السطحي، والسطحي في رأيه هو الفكرة الإخبارية في أبسط صورها، أما الجملة المُحوّلة فهي الجملة المُشتقة من البنية العميقة بواسطة عدد من القواعد التحويلية ، ويمتاز الكتاب بالتحليل لعدد من الأساليب اللغوية قدّم فيه المؤلف تبريراً للحركة الإعرابية بالاعتماد على المعنى أكثر من الاعتماد على فكرة العامل. (عميرة: ١٩٨٥م)

و من أحدث المراجع وأبرزها ما تناوله غلفان من استعراض للأسس النظرية والمنهجية للسانيات التوليدية ومنطلقاتها الفلسفية ومفاهيمها الأساسية. (غلفان: ٢٠١٦)

وتكمن أهمية هذا العمل في الوقوف على مبادئ التحويل بالاستبدال في النحو العربي، وإبراز مظاهره المختلفة بالاعتماد على ما ورد في التراث النحوي، مع مراعاة خاصيته ومنهجيته، وظروفه الفكرية والحضارية، ولا يهدف إلى مقارنة التحويل في النحو العربي بنظرية النحو التوليدي للعالم تشومسكي؛ إذ لكلٍ منهما غاياته ومنهجيته الخاصة وظروفه الزمنية والفكرية، وينتقد أحد الباحثين (علوي، ٢٠١٨م: ٢٠٤-٢٠٥) ما يقوم به بعض الدارسين في مجال لسانيات التراث التي تهدف إلى تقريب اللسانيات الحديثة من التراث، بأن ما يقومون به هو العكس؛ فهم يتخذون اللسانيات الحديثة أصلاً ويبحثون عما يماثله في التراث، ويقوم هذا الإجراء على جذب الأصل (التراث) إلى الفرع، وهو إجراء فاسد، لأنهما هويتان لهما خلفيات إبستمولوجية متباينة، كما أن هذا التأصيل فيه الكثير من توسيع المفاهيم اللسانية الحديثة لتتنفق وتنسجم مع ما جاء في التراث.

التحويل في الدراسات اللغوية الحديثة:

قام علم النفس السلوكي على فكرة عامة مفادها اختصار التحليل العلمي للظواهر النفسية عند الإنسان والحيوان على حد سواء في دراسة السلوك القابل للملاحظة، ويمكن مراقبته من خلال ثنائية المثير والاستجابة، ومن أبرز علماء المدرسة السلوكية واطسون watson الذي درس في كتابه "السلوكية" العلاقة بين السلوك اللغوي والفكر، وخرج بنتيجة مفادها أن اللغة سلوك إنساني مثلها مثل باقي السلوكيات والعادات التي يتعلمها الإنسان عن طريق التكرار، وتكمن أهمية اللغة بوصفها سلوكاً في كون مفردات اللغة قادرة على إثارة السلوك مثلها مثل الأشياء المادية الموجودة في العالم الخارجي، وقد وجدت هذه الأفكار صدى كبيراً عند العالم الأمريكي "بلومفيلد" Bloomfield في كتابه الشهير "اللغة" language الذي يعتبر اللغة سلوكاً تجريبياً يمكن إدراكه عبر معرفة المثير، مما يجعل اللغة مثيراً واستجابة تتم في مراحل زمنية، هي:

-أحداث عملية سابقة للكلام، وهي ما تُعرف بالمثير، مثل: رؤية التفاحة-الشعور بالجوع.

-الكلام، وهو ما يُمثل الاستجابة: أريد التفاحة، ويُصبح بدوره مثيراً

-أحداث عملية تتبع الحدث الكلامي: قطف التفاحة وإحضارها ثم تقديمها. (غلفان، ٢٠١٠م: ١٩-٢٠).

ورأى "بلومفيلد" ضرورة إبعاد دراسة المعنى من الوصف اللغوي بسبب صعوبة البحث فيه بحثاً موضوعياً، ومع أنه لم يقلل من شأن دراسة المعنى إلا أنّ الكثير من اللسانيين لم يدركوا ما كان يقصده، مما أدى إلى إعراض عدد كبير من اللغويين عن دراسة المعنى، وبدأت الدراسة اللغوية تميل إلى الوصف القواعدي للجملة أو ما عُرف بالمكونات المباشرة الذي تُربط فيه المكونات اللغوية ببعضها في رسم شجري، مما مهّد بعد ذلك لظهور التوزيعية. (يونس، م ٢٠١٨: ٦٨-٦٩)

وقد كان المنهج اللساني في حقبة البنيوية هو المنهج السلوكي السائد، فكل نطق صوتي هو استجابة لمثير لغوي أو غير لغوي، وكان تركيز السلوكية على السلوك الخارجي للإنسان، فهو مادة التحليل اللساني، مع إهمال العمليات الذهنية الداخلية في المخ البشري. وعلى خلاف ذلك جاءت تباديات مدرسة النحو التوليدي التحويلي على يد العام الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي Chomsky بدءاً من سنة 1957م، وهي السنة التي ظهر فيها كتابه (الأبنية التركيبية) Syntactic Structures الذي يحمل بذور نظريته الجديدة. فقد عدت هذه المدرسة اللغة قدرة غريزية وفطرية، مختصة بالإنسان، لذا رأى تشومسكي هدف التحليل اللساني أن يشرح اللغة ويعللها من الداخل وليس من الخارج (الوعر: 1988م: 115)

و النظرية التحويلية قامت على مبدئين، وهما: التوليد generation والتحويل transformation وبهما سُميت النظرية، فالتوليد هو: إنتاج تركيب أو مجموعة من التراكيب من الجملة الأصل التي تُسمى بالجملة التوليديّة generative sentence، وأهم ما توصف به الجملة التوليديّة أنها الجملة التي تؤدي معنى مفيداً، مع كونها تتشكل من أقل عدد ممكن من الكلمات، ومع كونها أيضاً خالية من عمليات التحويل، وقد نادى هاريس ZelligSabbatei Harris من قبل بدراسة التحويل، قبل أن يدرسه تلميذه تشومسكي بشكل مُفصّل. (استينية، 2005م: 178)

ولا ينبغي أن يفهم من مصطلح توليدي ما له علاقة بالإنتاج والتوليد فحسب، وإنما المقصود أيضاً هو المعنى الرياضي للكلمة أي التعداد الواضح بواسطة القواعد، فالنحو يُشكل نظرية رياضية، و الهدف منه وفقاً لنظرية تشومسكي هو القدرة على وصف القواعد التي يمتلكها المتكلم والسماع على حد سواء وصفاً بنويًا يبين الطريقة التي يُؤد بها المتكلم والسماع عدداً لا محدوداً من الجمل النحوية، ومن ثمّ معالجتها بطريقة صورية بإمكانها أن تُبرز خصائص القواعد التي تجعل إنتاج الجمل النحوية وتأويلها أمراً ممكناً. (غلفان، 2016م: 62-63)

ونال مصطلح "التحويل" شهرة واسعة في العصر الحاضر بعد ظهور مدرسة النحو التحويلي التوليدي عام 1965م، بعد ظهور كتاب تشومسكي (وجوه النظرية النحوية) Aspects of the theory of syntax ويُعتبر هذا المصطلح من أهم المفاهيم الأساسية في هذه المدرسة اللغوية، وفي طريقتها في تحليل اللغة. والتحويل في نظرية النحو التحويلي التوليدي هو: عملية تغيير تركيب لغوي إلى آخر بتطبيق قانون تحويلي واحد أو أكثر، مثل التحويل من جملة مبنية للمعلوم إلى جملة مبنية للمجهول أو من جملة خبرية إلى جملة انشائية، أو من جملة خبرية مثبتة إلى جملة منفية. (الخولي، 1999م: 290)

إن التحويل هو وصف العلاقة بين التركيب الباطني أو البنية العميقة، والتركيب الظاهري أو البنية السطحية، فالتركيب الباطني يعطي المعنى الأساسي للجملة، وهذا التركيب مجرد افتراضي، ويتوقف عليه معنى الجملة وتركيبها بعد أن تصبح تركيباً ظاهرياً، وبذلك يكون التركيب الظاهري حقيقة فيزيائية إذا تكلمنا أو كتبنا (الخولي، 1999م: 6)

فالتحويل: هو عملية تغيير تركيب لغوي إلى آخر بتطبيق قانون تحويلي واحد أو أكثر، مثل التحويل من جملة مبنية للمعلوم إلى جملة مبنية للمجهول أو من جملة خبرية إلى جملة انشائية، أو من جملة خبرية مثبتة إلى جملة منفية (الخولي، ١٩٩١م: ٢٩٠) وبه يتم تحويل جملة إلى أخرى، أو تركيب إلى آخر، والجملة المحوّل عنها هي ما يُعرف بالجملة الأصل أو النواة، والقواعد التي تتحكم في تحويل جملة الأصل أو البنية العميقة هي القواعد التحويلية، وهي قواعد تحذف بعض عناصر البنية العميقة، أو تنقلها من موقع إلى موقع، أو تحوّلها إلى عناصر مختلفة، أو تضيف إليها عناصر جديدة، وإحدى وظائفها الأساسية تحويل البنية العميقة المجردة الافتراضية التي تحتوي على معنى الجملة الأساسي إلى البنية السطحية الملموسة التي تُمثّل بناء الجملة وصيغتها النهائية. وهذه القواعد التحويلية تختلف تفصيلاتها من لغة إلى أخرى فقد تكون الحذف أو الاستبدال، أو الإضافة أو إعادة الترتيب أو غير ذلك. (السيد، ١٩٨٩م: ١٢١، الراجحي، ١٩٨٨م: ١٤٠-١٤١)

التحويل في النحو العربي:

التحويل في النحو العربي يقوم على افتراض بنيتين للجملة، الأولى: باطنية، والثانية: سطحية، واستخدم النحاة عبارات مختلفة، منها: أصله كذا وقياسه كذا، هو على تقدير كذا، والجملة الأصلية المحوّل عنها قد تكون افتراضية بحتة، وقد تكون من الجمل المستعملة ولكن تحولت لغرض المبالغة، أو بسبب كثرة الاستعمال، وأكثر افتراضات وتقديرات النحاة تقوم على اعتبار المعنى، وفي حالات كثيرة لجأ النحاة إلى مبدأ التحويل لِتُوافق بعضُ التراكيب القواعدَ المُطرّدة

ونلاحظ أن النحاة العرب وظّفوا مبدأ التحويل في صورته المختلفة مثل: "الحذف، والزيادة، والاستبدال، وإعادة الترتيب" لإدراج كل الجمل اللغوية تحت نمطين وحيدين التزم بهما النحاة، وهما: الجملة الاسمية، والجملة الفعلية.

وتدل أبواب كتاب (دلائل الإعجاز) على تناول عبدالقاهر الجرجاني بعض مظاهر التحويل مثل: التقديم والتأخير الذي تحدث فيه عن تقديم الفعل، وتقديم المفعول وتقديم الفاعل وغيرها من الصور. فقولنا: "أفعلت؟" يدل على أن الشك في الفعل نفسه، أما قولنا: "أأنتَ فعلت؟" بتقديم الاسم فيدل على أن الشك في الفاعل من هو؟ (الجرجاني: ١٩٩٢م، ص ١١١)

وتحدّث عن التحويل بالاستبدال في شرحه الفرق بين الخبر إذا كان فعلا وبينه إذا كان اسما، فالإخبار بالاسم يدل على الثبوت وعدم تجدد المعنى، كقوله تعالى: (وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد) (الكهف: ١٨) فإن الفعل لا يُؤدّي الغرض هنا لأن الفعل يقتضي تجدد الصفة، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير تجدد، والغرض هنا تأدية هيئة الكلب وهي هيئة ثابتة (الجرجاني: ١٩٩٢م، ١٧٤-١٧٥) ويمكن تمثيل العملية التحويلية بالشكل الآتي:

ويبسط كلبهم ذراعيه بالصيد ← تقديم

و كلبهم يبسط ذراعيه بالصيد ← استبدال

وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد.

ومن ذلك قولنا: "زيد منطلق"، و "زيد ينطلق" فالتركيب الأول أثبت الانطلاق لزيد من غير تجدد، بل المعنى فيه كالمعنى في قولنا: "زيد طويل"، و "عمرو قصير"، فالطول والقصر لا يتجددان بل تثبتهما وتوجههما للشخص فحسب، بخلاف قولنا: "زيد ينطلق" فالمعنى أنه يزاول الفعل وليس هيئة ثابتة فيه. ويمكن تمثله بالشكل الآتي:

زيد ينطلق ← استبدال

زيد منطلق. (الجرجاني: ١٧٤)

من أسباب نشوء مفهوم التحويل في النحو العربي

١- ضبط العلاقة بين ظاهر الكلام والقواعد المطردة في القراءات القرآنية:

لقد كان للقراءات القرآنية السبعة والشاذة أثر قوي في لجوء النحاة للتأويل، إما لإبعادها عن الضعف والشذوذ، أو لإخضاعها للقواعد النحوية المطردة. (الحموز، ١٩٨٤م: ٣٣) مثل: قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر (وجاعل الليل سكنا) في قوله تعالى: (وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا) (الأنعام: ٩٦)، فاسم الفاعل إذا كان ماضيا لا يعمل عند البصريين، ولا بد من تقدير فعلين مضميرين نصباً (سكنا، والشمس والقمر). (الأندلسي، ٢٠٠١م: ٤/١٩٠)

ومن القراءات الشاذة، قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام: ((أحب إلى أئبنا منا ونحن عصبه)) (يوسف: ٨) بنصب (عصبه)، والتقدير: (نحن نتعصب عصبه). فتكون حالا قد سدت مسد الخبر (العكبري، ١٩٩٦م: ١/٦٨٣).

وطراً على الجملة تحويل بالحذف، أي حذف الفعل ثم تحويل بالاستبدال، إذ سدّ الحال مسدّ الخبر:

ونحن نتعصب عصبه ← حذف

ونحن ∅ عصبه ← استبدال

ونحن عصبه.

وقوله تعالى: (ثم يدركه الموت) (النساء: ١٠٠) قرئ (يدركه) بالرفع، وخُرج على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقديره: هو يدركه، فعطف الجملة الاسمية على الفعل المجزوم بفاعله (يخرج)، فكأنه عطف جملة على جملة (ابن جنبي، ١٩٩٨م: ١/٢٩٩).

ثم هو يدركه الموت ← حذف

ثم ∅ يدركه الموت.

وقوله تعالى: (وهذا بعلي شيخا) (هود: ٧٢) قرئت (شيخا) بالرفع وبالنصب، فالنصب على الحال من المثنى إليه، والعامل فيها ما في (هذا) من معنى الإشارة، فكأن المعنى: أشير إليه شيخا. أما الرفع فيكون (شيخ) لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا شيخ. (الأنباري، دبت، ١٧/٢، ١٨).

ويمكن تمثيل العمليات التحويلية التي طرأت على البنية العميقة وفقاً لتقديرات النحاة بالشكل الآتي:

أشير إلى بعلي شيخا ← استبدال

هذا بعلي شيخا.

هذا بعلي. هذا شيخ ← حذف

هذا بعلي. ∅ شيخ.

ونخلص من ذلك إلى أن النحاة صرفوا النظر عن المعنى المباشر للعبارة القرآنية في بعض المواضع، كالمواضع غير المتوافقة مع المعنى، أو المخالفة لظاهر القواعد اللغوية والنحوية، ونفدوا على مستوى التطبيق مبدأ التقدير لصورة أخرى من العبارة يتحقق فيها كل الصفات المثالية التي ترتضيها قواعد النحو، ويكفي رأي أبي عمرو بن العلاء الذي يلخص عمل النحوي في قدرته على التوجيه والتقدير،

فالنحوي يُسمّى نحويًا لأنه يوجّه الكلام إلى الإعراب، فعلى النحوي أن يقوم بتوجيه ظاهر التركيب غير الملائم (لأي سبب) في اتجاه الباطن المثالي المُقدَّر الذي يحمل المعنى المراد، أو يكشف عنه (راضي، د.ت: ٤١٦)

٢- ضبط العلاقة بين ظاهر الكلام والقواعد المُطرّدة في القراءات القرآنية

الشعر ديوان العرب وهو مصدر من مصادر التقعيد النحوي، لكن النحاة اصطدموا بكثير من التراكمات الشعرية المخالفة لظاهر القواعد النحوية المطرّدة، فدرسوها تحت مسمى الضرورات الشعرية ولجؤوا إلى تقدير بني تحتية لهذه التراكمات تتوافق وتنسجم مع القواعد المطرّدة.

وفي المقابل فإن جوهر النظرية التحويلية هو التمييز في التركيب بين ظاهر وباطن، أو باصطلاحهم بين البنية العميقة والبنية السطحية، وتُمثّل البنية العميقة الصورة المثالية الكاملة للجملة كما تحددها شروط الصحة النحوية، ولا تظهر هذه البنية ولا يُلفظ بها في كل الأحيان، وإنما هي تكوين تقديري يحمل معنى الجملة وصورتها المثالية من الناحية التركيبية والدلالية. أما البنية الظاهرة أو السطحية فهي الصورة الفعلية المحسوسة للجملة، ويمكن أن تتمثّل في عدة أشكال لغوية ظاهرية وهي مُحولة عن البنية العميقة، فالجملة الخبرية المثبتة هي الأساس، وتشتق منها عن طريق القواعد التحويلية الصور الأخرى مثل الجملة الاستفهامية، والمنفية والمبنية للمجهول وجملة الأمر والنهي. (خرما، حجاج، ١٩٨٨، ٣٦) وهذا ما حاول النحاة أن يفعلوه في دراستهم للتراكيب الشعرية بردّها إلى بنية تحتية لا تخالف القواعد ولا تخرج عنها، فإن أبت اضطرّوا أن يصفوها بأنها من المسموع الذي لا يُقاس عليه.

واللغة الأدبية في مجملها هي عدول عن النمط المثالي للغة، واستغلال من قبل الأديب أو الشاعر لأنواع بعينها من التحويلات يشكل أسلوبه التركيبي حيث يكون بمقدوره، مع وجود عدد من القوالب التحويلية المتاحة للتعبير عن بنية عميقة، أن يُفضّل ويختار قوالب بعينها على قوالب أخرى، فالكلام المنزّاح أو المحوّل هو الاستعمالات غير العادية، وكلّ خروج عن الكلام المألوف هو انحراف عن اللغة المثالية لأغراضٍ فنيّة (راضي: ٤٩٥)، واستغلال الأديب للطاقة الكامنة في اللغة استغلالاً خاصاً يعني أن العملية الإبداعية تقع في إطار النظام اللغوي الذي يسمح بصورٍ مختلفة من التحويلات يستطيع الأديب أن يوظّفها في عمله الإبداعي (بحيري: سعيد، ٢٠٠٥: ٥٨)، والأسلوب الأدبي هو البنية السطحية أو هو انزياح عن البنية العميقة للأسلوب، والأسلوب باعتباره انحرافاً أو انزياحاً يقع ضمن ما يُعرف بالمقدرة اللغوية عند التحويليين، فالمتلقي يملك مقدرة لغوية تمكّنه من المقارنة بين ما هو مُنحرف في النص مع ما هو نمطي أو مألوف (أبو العدوس، ٢٠٠٧: ٤٦)

وذكر سيبويه في باب (ما يحتمل الشعر) أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف؛ لأنهم يشبهونه بما ينصرف من الأسماء، ويجوز حذف ما لا يجوز حذفه؛ لأنهم يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوف. (سيبويه: ج ١، ٢٦)

وقول المرار بن سلامة العجلي:

ولا ينطقُ الفحشاءَ مَنْ كانَ منهمُ إذا جلسوا منّا ولا مِنْ سواننا

فاستخدم الشاعر كلمة "سواء" استخدام "غير"؛ لأنها لا تُستعمل في الكلام إلا ظرفاً (ابن عقيل: ١٩٩٥م، ٥٥٦/١) فخرجت هنا عن الظرفية واستعملت مجرورة بـ(من) مثلما تُجرّ (غير) بـ (من)، ويمكن تمثيل التحويل الذي طرأ على التركيب بالرسم الآتي:

إذا جلسوا منّا ولا من غيرنا ← استبدال

إذا جلسوا منّا ولا من سواننا.

تعريف التحويل بالاستبدال

الاستبدال **Replacement**: هو وضع كلمة مكان أخرى، أو مكان تركيب آخر لأداء نفس الوظيفة النحوية، مع الحفاظ على مقبولية الجملة من الناحية الدلالية. (الخولي، ١٩٩١م: ٢٧٣).

ويمكن توضيح هذا القانون بالرسم الآتي: ← ج، فاستبدلنا العنصر (أ) بالعنصر (ج). (الخولي، ١٩٩٩م: ٢٣).

ومن ذلك القول المشهور في كتب النحو عن (كان وأخواتها): (أن كنت برا فاقترَب) إذ يمكننا بواسطة الإحلال القول: (أن ما أنت برا فاقترَب)، فتحلّ (ما) محل (كان) المحذوفة. (ابن عقيل، ١٩٩٥م: ٢٧٣).

واشترط النحاة في إعمال المصدر عمل فعله أن يكون نائباً عن الفعل مثل: (إكراما ضيوفك)، أو أن يصح إحلال الفعل محله مسبقاً بأن أو ما مصدريتين (ابن عقيل، ١٩٩٥م: ٨٨ / ٢)؛ مثل (يسرني فهمك الدرس)، وكأن البنية العميقة للتركيب الأول (أكرم ضيوفك)، وفي الجملة الثانية (يسرني أن تفهم الدرس)، ومن ثمّ منعوا أن يعمل عمل الفعل المصدر المؤكد، والمبين للعدد؛ لأنه ليس محولاً من تلك البنية العميقة التي اشترطوها، ولا تصلح أن تكون أصلاً له (ممدوح، ١٩٩٩م: ٢١٦).

التحويل بالاستبدال في الحروف التي تعمل عمل "ليس"

من نواسخ الابتداء التي تعمل عمل "كان" "ما" التي تعمل على لغة أهل الحجاز؛ لأنها أشبهت "ليس" في أنها لنفي الحال، نحو قوله تعالى: (ما هذا بشراً) (يوسف: 31) (السيوطي، 1998م: 1/ 389).
ويمكن تحليل أصل الكلام الذي افترضه النحاة، وبسببه حكموا بجواز عمل "ما" بالرسم الآتي:

ليس هذا بشراً ← استبدال

ما هذا بشراً.

وأشار النحاة إلى أن صيغة اسم المفعول تحل محل اسم الفاعل، مثل قوله تعالى:
(لا عاصم اليوم من أمر الله) (هود: 43) بمعنى: لا معصوم، وقوله تعالى: (حرماً آمناً) (العنكبوت: 67)
بمعنى مأموناً، ويُقال: (سرُّ كاتم) بمعنى مكتوم. (ابن فارس، 1997م: 168).

ويمكن تمثيل ذلك تحويلاً بالشكل الآتي:

_ لا معصوم من أمر الله ← استبدال

لا عاصم من أمر الله.

_ وجعلنا حرماً مأموناً ← استبدال

وجعلنا حرماً آمناً.

_ سرُّ مكتوم ← استبدال

سرُّ كاتم.

وتنوب صيغة اسم المفعول عن صيغة اسم الفاعل، مثل قولهم: (عيشٌ مغبون) بمعنى: غابن غير صاحبه. ومنه
أيضاً قوله تعالى: (إنه كان وعده مأتياً) (مريم: 61). (ابن فارس، 1997م: 168)

فيكون من استبدال صيغة اسم المفعول بصيغة اسم الفاعل.

أتياً ← استبدال

مأتياً.

ونصّ النحاة على أن التمييز محول عن الفاعل أو المفعول، فقوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا) (مريم: ٤)، التمييز فيه مُحَوَّل عن الفاعل، إذ أصل التركيب: (واشتعل شيب الرأس)، وقوله تعالى: (وفجرنا الأرض عيونا) (القمر: ١٢)، التمييز فيه مُحَوَّل عن المفعول؛ إذ أصل التركيب: (وفجرنا عيون الأرض) (الأشموني، دبت: ٢٠١/١).

كما لاحظوا أن تركيب النداء محول عن تركيب آخر، ناب فيه حرف النداء مناب الفعل (أدعو)، فالمنادى مفعول به في المعنى، وناصبه فعل مضمر نابت (يا) منابه. فأصل عبارة: (يا محمد): (أدعو محمد)، فحذفت جملة (أدعو) وأنيبت (يا) منابها. (ابن عقيل، ١٩٩٥م: ٢/٢٣٦).

ومن هنا لاحظوا أنّ المحل الإعرابي للمنادي هو النصب.

أدعو محمدا ← استبدال

يا محمدا ← استبدال العلامة الإعرابية

يامحمدُ.

تحويل الاستبدال في "المفعول المطلق"

المفعول المطلق هو المصدر المنصوب، توكيدا لعامله أو بيانا لنوعه أو عدده. (ابن عقيل، ١٩٩٥: ١/٥٠٥).
ويُنصب المفعول المطلق بمصدر مثله، نحو: عجبت من ضرب زيدٍ عمرا ضربا، وبالمشتق، نحو: أنت مطلوبٌ طلبا. (السيوطي، ١٩٩٨م: ٢/٧٤)
وأصل التركيب الأول:

عجبت من أن يضرب زيدٌ عمرا ضربا ← استبدال

عجبت من ضرب زيد عمرا ضربا.

وأصل التركيب الثاني:

أنت تُطلب طلبا ← استبدال

أنت مطلوب طلبا.

وينوب مناب المفعول المطلق ما يدلّ عليه، مثل: صفته، مثل: "سرتُ أحسن السّير"، وضميره، مثل قوله تعالى: (لا أعذبه أحدا من العالمين) (المائدة: ١١٥) أي: لا أعذب العذاب، والإشارة إليه مثل: ضربته ذلك الضرب، ومرادفه، مثل: فرحتُ جدّلاً، و"كل وبعض" بشرط إضافتهما إلى المصدر، كقوله تعالى (فلا تملوا كل الميل) (النساء: ١٢٩)، والآلة مثل: ضربته سوطاً، والأصل: ضربته ضرب سوط، فحذف المضاف وناب المضاف إليه منابه. (ابن هشام، د.ت: ٢١٣/٢)

فلا تملوا ميلا ← استبدال

فلا تملوا كل الميل.

لا أعذب العذاب أحدا ← استبدال

لا أعذبه أحدا.

_ ضربته ضرب سوطِ ← حذف

ضربته سوطِ ← استبدال

ضربته سوطاً.

تحويل الاستبدال في "المفعول فيه"

يُعرّف النحاة الظرف بأنه: زمان أو مكان ضُمّن معنى "في" باطراد، مثل: انتظر زمناً، و اجلس هنا، والأصل: انتظر في زمن، و اجلس في هذا الموضع (ابن عقيل، ١٩٩٥ م: ٥٢٦/١)

الظرف: ما كان وعاءً لشيء، والزمان والمكان ظرف لأن الأفعال توجد فيها، فصارت كالأوعية لها. (ابن يعيش، د.ت: ٤١/٢).

ويمكن تمثيل العمليات التحويلية التي طرأت على البنية العميقة التي افترضها النحاة بالشكل الآتي:

انتظر في زمن ← حذف

انتظر سوطاً.

اجلس في هذا الموضع ← حذف

اجلس سوطاً ← استبدال

اجلس هنا.

وينوب المصدر عن ظرف المكان قليلا، نحو: "وقفتُ قُربَ أخي" والتقدير: مكانَ قُربِ أخي، فحُذف المضاف "مكان" وناب المضاف إليه "قُرب" منابه وأُعرب إعرابه، ولا يُقاس على ذلك، وتكثر نيابة المصدر عن ظرف الزمان، مثل: "أتيتك غروبَ الشمس"، والأصل: وقتَ غروبِ الشمس، ومثل: زرْتُكَ صلاةَ العصر، والأصل: زرْتُكَ وقتَ صلاةِ العصر. (ابن عقيل، 1995م: 534/1، 535)

ويمكن توضيح التحويل في التراكيب السابقة بالرسم الآتي:

وقفت مكانَ قُربِ أخي _____ حذف

وقفت قُربِ أخي ← استبدال (ناب المضاف إليه مناب المضاف)

وقفت قُربِ أخي.

أتيتك وقتَ غروبِ الشمس _____ حذف

أتيتك غروبِ الشمس ← استبدال (ناب المضاف إليه مناب المضاف)

أتيتك غروبِ الشمس.

تحويل الاستبدال في الحال

يرى جمهور النحاة أن الحال تأتي نكرة، وما جاء معرفة فله تأويل، مثل قولهم: اجتهد وحدك، جاؤوا الجماء الغفير، فتقدير الأول: اجتهد مُنفردا، وتقدير الثاني: جاؤوا جميعا. (ابن هشام، دبت: 301-303)

ونلاحظ أن النحاة افترضوا بنية عميقة للتراكيب السابقة المخالفة للقاعدة المطرّدة، ويمكن توضيح ذلك بالرسم الآتي:

اجتهد منفردا _____ استبدال

اجتهد وحدك.

جاؤوا جميعا _____ استبدال

جاؤوا الجماء الغفير

والأصل في الحال أن يكون مشتقا، وقد ورد مجيئه مصدرا نكرة على خلاف الأصل، مثل قولهم: "جاء ركضا" و"جاء بغتة"، واختلف النحاة في تأويل ذلك؛ إذ يرى جمهور النحاة البصريين أن التقدير: جاء باغتاً، ويرى الأخفش أن التقدير: جاء يُعْتَبُ بغتةً، فهو مفعول مطلق منصوب بفعل محذوف، والجملة الفعلية هي الحال، (ابن عقيل، ١٩٩٥م/١/٥٧٤)

ويمكن القول إن اختلاف النحاة هو اختلاف في تحديد البنية العميقة التي تحول عنها التركيب، ويمكن تمثيل ذلك بالرسم الآتي:

التقدير الأول:

جاء باغتاً ~~استبدال~~

جاء بغتة.

التقدير الثاني:

جاء يبيغت بغتة ~~حذف~~

جاء ~~بغتة~~.

والأصل في الحال الأفراد، وقد تقع الجملة، وشبه الجملة في موضع الحال، مثل قوله تعالى: فجاءته إحداهما **تمشي على استحياء** (القصص: ٢٥) أي: ماشية، وقوله تعالى: فخرج على قومه في زينته (القصص: ٧٩)، وتتعلق شبه الجملة بمحذوف تقديره: استقرّ، أو مستقر. (ابن يعيش، دبت، ٢/٦٥، ٦٦) ويمكن تمثيل ذلك تحويلاً بالرسم الآتي:

فجاءته إحداهما ماشية على استحياء ~~استبدال~~

فجاءته إحداهما تمشي على استحياء.

فخرج على قومه مستقرا في زينته ~~حذف~~

فخرج على قومه ~~في زينته~~.

تردد التحويل بين أن يكون حذفاً أو استبدالاً

ومنه قوله تعالى: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) (يونس: ٧١)، لا يجوز أن تكون الواو عاطفة؛ لأن العطف على نية تكرار العامل، ولا يصح أن يُقال: "أجمعتُ شركائي"، بل يُقال: "أجمعتُ أمري، وجمعتُ شركائي"، فالواو للمعية، والتقدير: "فأجمعوا أمركم مع شركائكم"، أو أن "شركاءكم" منصوب بفعل محذوف، والتقدير: "فأجمعوا أمركم، وأجمعوا شركاءكم". (ابن عقيل، ١٩٩٥م: ١/ ٥٤١، ٥٤٢)

ويمكن تحليل احتمالات البنية العميقة التي افترضها النحاة بالشكل الآتي:

_ فأجمعوا أمركم مع شركائكم ← استبدال

فأجمعوا أمركم وشركاءكم.

_ فأجمعوا أمركم وأجمعوا شركاءكم ← حذف

فأجمعوا أمركم و ∅ شركاءكم.

أما قولهم "كلمته فاه إلى في" فاختلف النحاة في تقدير أصل الكلام، إذ يرى أكثر البصريين أن التقدير: كلمته مشافهة، فالعامل في الحال هو الفعل "كلمته"، والكوفيون يرون أن تقدير الكلام: كلمته جاعلا فاه إلى في. (ابن يعيش، دبت: ٦١/٢)

_ كلمته مشافهة ← استبدال

كلمته فاه إلى في.

أو:

_ كلمته جاعلا فاه إلى في ← حذف

كلمته ∅ فاه إلى في.

خاتمة:

خلص البحث إلى أن ضوابط التحويل بالاستبدال في النحو العربي، هي:

-**اتفاق المُستبدل والمُستبدل منه في الوظيفة النحوية**؛ فالمصدر المؤول الذي يحل محل المفرد يُؤدّي الوظيفة النحوية نفسها، فيقع فاعلا ونائب فاعل ومفعولا به ونعتا وحالا، ومبتدأ وخبرا وغيرها من الوظائف النحوية.

-**موافقة المُستبدل به للقواعد النحوية المُطرّدة**، مثل لجوء النحاة إلى القول بالاستبدال لتوافق بعض العبارات المسموعة عن العرب القواعد النحوية المُطرّدة، نحو قولهم: "بايعته يدا بيدٍ" فُنُصِبَتْ "يدا" على الحالية، والأصل في الحال أن يكون مشتقا؛ لذا قدّر النحاة أن أصل الكلام: "بايعته ناقدًا" ثم طرأ على البنية العميقة تحويل بالاستبدال.. (سيبويه ١٩٨٣م: ٣٩١/١)

- **توضيح المعنى**: قد يلجأ النحاة إلى القول بالاستبدال لغرض توضيح المعنى، مثل: تقديرهم أن أصل عبارة "سبحان الله" "براءة الله من سوء" (سيبويه، ١٩٨٣: ٣٢٤/١). وطرأ عليها تحويل بالاستبدال، فأصل الكلام هو عبارة افترضها النحاة لمجرد تمثيل المعنى وتوضيحه وإن كانت لا تستعمل.

المراجع العربية

ابن جني، عثمان، (١٩٩٨م). المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق: محمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن عقيل، بهاء الدين، (١٩٩٥م) شرح ابن عقيل، بيروت: المكتبة العصرية.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد، (١٩٩٧م) الصحابي في فقه اللغة العربية، تعليق: أحمد حسن بسج، بيروت: دار الكتب العلمية .

ابن هشام، أبو محمد عبد الله، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر،

ابن يعيش، موفق الدين علي، شرح المفصل، بيروت: عالم الكتب.

أبو العدوس، يوسف، (٢٠٠٧)، الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، عمان: دار المسيرة.

استيتية، سمير (٢٠٠٥ م) اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، الأردن: عالم الكتب الحديث .

الأشموني، أبو الحسن علي بن محمد، شرح الأشموني على الألفية، رتبته وصححه: مصطفى حسين، بيروت، دار الفكر.

الأنباري، عبد الرحمن، البيان في غريب إعراب القرآن، علق عليه: بركات يوسف هبود، بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم.

الأندلسي، أبو حيان (٢٠٠١م) تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الجواد، وعلي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية.

بحيري، سعيد، (٢٠٠٥م) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، القاهرة: مكتبة الآداب.

الجرجاني، عبد القاهر، (١٩٩٢م) دلالات الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، القاهرة: مطبعة مدني.

الحموز، عبد الفتاح، (١٩٨٤م) التأويل النحوي في القرآن الكريم، الرياض: مكتبة الرشد.

خرما، نايف، الحجاج، علي (١٩٨٨م) اللغات الأجنبية تعلمها وتعليمها، الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

الخولي، محمد (١٩٩٩م) قواعد تحويلية للغة العربية، عمان: دار الفلاح.

الخولي، محمد (١٩٩١) معجم علم اللغة النظري، بيروت: مكتبة لبنان.

- الراجحي، عبده (١٩٨٨م)، النحو العربي والدرس الحديث، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
راضي، عبد الحكيم، نظرية اللغة في النقد العربي، مصر: مكتبة الخانجي.
سيبويه، عمرو بن قنبر (١٩٨٣م) الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: عالم الكتب.
السيد، صبري إبراهيم (١٩٨٩م) تشومسكي: فكره اللغوي وآراء النقاد فيه الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
السيوطي، عبد الرحمن (١٩٩٨م) همع الهوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية.
عبد الرحمن، ممدوح (١٩٩٩م). من أصول التحويل في نحو العربية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
العكبري، عبد الله (١٩٩٦م) إعراب القراءات الشواذ، تحقيق محمد السيد عزوز بيروت: عالم الكتب.
علوي، حافظ إسماعيلي (٢٠١٨م) اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، عمان: دار كنوز المعرفة.
عميرة: خليل (١٩٨٥م) العامل النحوي، جدة: دار ثروت.
غلفان: مصطفى (٢٠١٠م) في اللسانيات العامة، بيروت: دار الكتاب الجديد.
الموسى: نهاد (١٩٨٧م) نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، عمان، دار البشير.
الوعر، مازن (١٩٨٨م) قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، دمشق: دار طلاس.
يونس، محمد، (٢٠١٨م) مدخل إلى اللسانيات، طرابلس، دار الكتاب الجديد المتحدة.